

الجزء الثالث

الحرية والسيطرة

obeyikan.com

الضحايا والمفترسات

«ذلك الذي يريد أن يحكم الآخرين، أولاً يجب أن يكون سيد نفسه».

فيليب ماسينجر Philip Massinger، رجل العهد

أن أوان التلخيص؛ لقد نظرنا حتى الآن في تاريخ استعمال مصطلح (غسيل الدماغ) منذ أن وضعه إدوارد هنتر Edward Hunter عام 1950م، ولما كان غسيل الدماغ يشمل بالضرورة الأدمغة، فقد نقبنا أيضاً في العلوم العصبية، وعلم النفس، والفلسفة، مستبدلين بـ(العقل الألماسي) الديكارتي القديم بنية أكثر مرونة بكثير وأعدت تركيباً، وتعلمنا كيف يمكن أن تتغير الأدمغة ومعتقداتها فجأة أو ببطء مع مرور الوقت، ويمكن أن يحدث التغيير نفسه عندما تتدفق الطاقة من العواطف القوية في الشبكات المعرفية التي ترمز لمفهوم، مقوية ذلك المفهوم من مجرد فكرة إلى إقناع عميق. يحدث التغيير البطيء بدرجات ضئيلة، مثل تعلم عادة ما. لقد رأينا أيضاً أن الأدمغة تحفظ سجلاً عما تستطيع أو لا تستطيع تغييره في العالم حولها، وأن إشارة القابلية للتغيير هذه يمكن أن تشكل أساس شعورنا بالحرية ونظيرها السلبي، المفاعلة. المفاعلة، التي تحذر من تهديد وشيك للحرية، هي أعظم تحد يواجه تقنيات التأثير. كلما شعرنا أننا نتعرض للتلاعب، تحرض المفاعلة آلية (توقف وفكر)، وهي الأساس الذي يعتمد عليه القشرة الأمام جبهية لمقاومتنا لمحاولات التأثير. تطفئ التغييرات المفاجئة القوية قوة كافية، مثل الهجوم العاطفي الحاصل بغسيل الدماغ الجبري، على هذه المقاومة بالإكراه، في حين تقوم التغييرات البطيئة لغسيل الدماغ بالتسلل باستعمال وسائل أكثر مكرراً لتجاوز إدراكنا بأنه قد جرى التأثير فينا.

سوف يطبق الجزء الثالث ما توصلنا إليه حتى الآن في الجواب عن خمسة أسئلة مهمة ومتراطة حول غسيل الدماغ؛ يتعلق السؤال الأول بضحايا غسيل الدماغ: ما الذي يجعل بعض الناس معرضين بالخاصة في حين يبدو أشخاص آخرون أكثر قدرة على المقاومة؟ ويتعلق

السؤال الثاني بطرائق غسيل الدماغ: ما الذي نستطيع أن نتعلمه من العلوم العصبية وعلم النفس عن أي من التقنيات- والأفراد- يحتمل أن يكونوا أكثر فاعلية؟ وسوف نبحت في هذه الأسئلة في هذا الفصل. ويهتم السؤال الثالث (موضوع الفصل الثالث عشر) باحتمال السيطرة على عقول الجموع، وسوف أنظر في الفصل الرابع عشر في مستقبل غسيل الدماغ والتأثير المحتمل للتقنيات الحديثة، سائلين السؤال الرابع: هل يمكن تجاوز الفجوة الحالية بين الحلم والواقع في غسيل الدماغ؟ وأخيراً، في الفصل الخامس عشر، سوف أنظر في السؤال الخامس: كيف يمكن أن يقاوم غسيل الدماغ وأن تقلل أخطاره إلى الحد الأدنى؟

نحن جميعاً أفراد

كانت إحدى الأفكار الأساسية في هذا الكتاب هي الاختلافات الفردية؛ إذ تختلف الأدمغة، مثل الذوات التي تولدها هذه الأدمغة، اختلافاً كبيراً في الحجم، وكذلك في أعداد التشابكات العصبية والشبكات المعرفية وأنواعها¹، فلا يوجد دماغان متطابقان، سواء في البنية أو في أنماط النشاط.

بداية، يأتي هذا التنوع بسبب وجود مورثات مختلفة، وكذلك فإن تأثيرات المورثات تتضخم جداً بحقيقة أن المورثات تعمل وتقف عن العمل في الأوقات المختلفة والمناطق المختلفة من الدماغ. تحتوي خليتان من خلايا الجنين على التسلسل الوراثي نفسه، مع ذلك تعطي واحدة منها خلايا الجلد التي ينتج منها القشرة في الشعر، في حين تكون سلالة الأخرى خلايا عصبية، تطلق الاستجابة العصبية.

يعود المصير المختلف لهذه الخلايا إلى الطريقة التي تعمل فيها مورثاتها، إذ تصنع المورثة الناشطة بروتيناً قد يكون له عدد من التأثيرات في الدماغ، منها تفعيل عمل مورثات أخرى أو إيقافه، ويمكن أن تعمل المورثات أو تتوقف عن العمل أيضاً بتأثير البيئة: المواد الكيميائية، والمثيرات الكهرومغناطيسية، أو التنبيه الآتي من حواسنا بما يستلزمه العيش في عالم مليء بالأشياء والأشخاص والأفكار. قد تدخل المواد الكيميائية إلى الدماغ، على سبيل المثال، عن طريق تناول الطعام أو الشراب، أو تناول الأدوية، أو التغيرات الهرمونية في الجسم، أو الإبتانات، وقد يكون لهذه المواد الكيميائية تأثيرات متفاوتة في الدماغ والجسم². ولما كانت الخلايا العصبية تعتمد على الكهرباء، فقد تتأثر هي والمورثات المحتواة فيها بالإشعاعات الكهرومغناطيسية³.

هذا هو المنطق في استعمال العلاج بالاختلاج الكهربائي الذي يعطي صدمات كهربائية للمريض لعلاج حالات الاكتئاب الشديدة جداً. أخيراً، تستقبل أدمغتنا منبهات لا تنشط الخلايا العصبية فحسب، وإنما تغير المورثات المحتواة ضمنها. تتشابه البنية الطبيعية مع النشأة تشابكاً غير قابل للانقسام⁴، ومع هذا التنوع الشديد، ليس من المدهش أبداً أن دماغ الإنسان ليس عبوة موحدة.

السذج والساخرون

ينطبق التنوع على الخصال النفسية مثلما ينطبق على البنية الجسدية، ومن ضمن ذلك الخصال التي تقسح المجال لقابلية التعرض للتأثير أو تحمي منها؛ قد يخرج بعض الناس من دون أن يتحطموا من التعذيب أو أن يسلبوا من قبل محتال ماكر، لديهم القدرة على قول لا يحسداهم عليها أصدقاؤهم، وتجعل مندوبي المبيعات والجمعيات الخيرية يأسين منهم. لوقابل أمثال هؤلاء الأشخاص ستانلي ميلغرام Stanley Milgram، لأحجموا عن متابعة عملياته باكراً في التجربة (كما فعل حَقاً عدد ضئيل من الأشخاص الخاضعين للتجربة)، إذ إن لديهم قوة داخلية، وإيماناً ذاتياً، تعزلهم عن هذه الأشكال من الضغط الاجتماعي.

يفتقر معظمنا إلى الحماية، ومع أننا نعتقد بأننا نتمتع بالمناعة، فإن الواقع يثبت على الدوام أننا مخطئون، فنقع ضحايا للمحتالين، ونقدم على عروض مبهمة، ونشتري أشياء لا نريدها أو نحتاج إليها، ونعطي المال لجمعيات خيرية لا نكثر لها أبداً. إذا كنا صادقين، فإن قابليتنا للإيحاء ستجعلنا نتفق مع الخبير على تقنيات المطاوعة روبرت شيالديني Robert Cialdini، الذي تبدأ مقدمة كتابه التأثير Influence (واسع النفوذ) بالقول:

«أستطيع أن أترف بحرية الآن أنني كنت في كامل عمري عجينة؛ لأنه على مدى عمري الذي أذكره، كنت هدفاً سهلاً لتلاعب الباعة المتجولين، وجامعي التبرعات، والدجالين من نوع أو آخر. صحيح أن بعضاً فقط من هؤلاء الأشخاص كان لديهم دوافع غير شريفة، لكن الآخرين - ممثلي وكالات خيرية معينة، مثلاً - يضمرون أفضل النيات. مهما كانت النيات، والنتيجة هي أنني أجد نفسي دائماً وبروية مقلقة أشارك في مجالات لا أُرغب فيها، أو أشتري بطاقات لحفل عمال التنظيفات».

شيالديني Cialdini، التأثير، الصفحة ix.

Cialdini, Influence, p. ix

محاولات التأثير قديمة قدم العقول التي تستهدفها، لذلك ليس من المدهش أن تقنيات اليوم قد طورت تلاؤماً ممتازاً مع الأدمغة التي تستهدفها، ويمكن القول إن التأثير ومحاولات مقاومته خصمان في سباق تسلح تطوري، وآخر خطوة في سباق التسلح قد تكون نزوعنا لشراء وقراءة كتب لعلماء علم النفس الاجتماعي مثل روبرت شيالديني Robert Cialdini، لكن حتى هذا ليس ضماناً للحماية من أسلحة التأثير. لا نتذكر دائماً أننا أشخاص مستقلون لدينا عقولنا الخاصة، أحياناً نكون متعبين جداً، أو مشغولين جداً، أو كسولين جداً، أو ضعفاء جداً، لكننا في كثير من الأحيان نتذكر، وهذا لا يهم على أي حال في كثير من محاولات التأثير. لا يهمني ما نوع سائل جلي الصحون الذي ينتهي به المطاف في حوض مطبخي ما دام أنه يؤدي الغرض؛ لذلك أتناول من الرف النوع الذي شاهدت أكبر عدد من الإعلانات عنه، بفرض أنه ليس أعلى بصورة ملحوظة من غيره. التدقيق المفصل للمزايا النسبية لكل سوائل جلي الصحون المتوافرة قد يكون فعلاً ضمن قدراتي البحثية، لكنه مضيعة للوقت، فمن يهتم، ما دمنا نحصل في النهاية على صحون نظيفة؟

تغيير المعتقدات

لكن قد يكون الأمر مهماً أحياناً؛ إذ يتلاعب بنا أحياناً كي نتصرف خلاف أفضل مصالحنا، سواء كان ذلك يعني الغرق في الدَّين لشراء شيء لا نحتاج إليه في الواقع، أو ربط حزام ناسف على خصرنا طلباً للشهادة. هدف غسيل الدماغ هو السيطرة على كل من تفكيرنا وأعمالنا، وفي الحالة المثالية، الدخول إلى رأس المستهدف، وسنرى في الفصل الرابع كيف يمكن أن يجعل علم الأعصاب الحديث ذلك ممكناً، ولكن الأغلبية العظمى لتقنيات التأثير لا يمكن أن تغير الأدمغة مباشرة، لذلك تعتمد بدلاً من ذلك إلى تغيير البيئة التي غمرت فيها تلك الأدمغة.

تضع هذه الحاجة إلى العمل عن بعد عائقين في طريق فنيي التأثير؛ الأول هو الوقت والجهد اللذان لتغيير الاعتقاد، خاصة إذا كان يجب أن يكون التغيير مهماً وطويل الأمد. يمكن أن تساعد إثارة المشاعر، لكن لا يزال يجب تعزيز المعتقدات الجديدة مرة بعد أخرى إلى أن تصبح اعتيادية - أي آلية - بحيث تنقص فرصة تحديها كثيراً، وإلى أن تصبح هذه الشبكات المعرفية الجديدة أقل بما يكفي من عتبة الوعي، فإنها لن تتناسب بارتياح مع بقية المشهد المعرفي للمستهدف، وإلى أن يتوقفوا عن البروز وجذب الانتباه، فهناك دائماً خطر أن المستهدف قد يُحفز على التشكيك بهم.

هذا هو السبب في أن الطوائف الدينية - على سبيل المثال - كثيراً ما تعزل تابعيها عن حياتهم السابقة، ذلك أنه بالتقليص إلى أدنى حدٍ احتمالٌ أن يقوم الأصدقاء، أو العائلة، أو الظروف السابقة بتنشيط شبكات معرفية لا تتوافق مع الإدارة الجديدة، فإنها تقلل من قدرة الأفكار السابقة على تحدي الأفكار الجديدة. تذكروا أنه عند اتخاذ القرارات بخصوص أين ستتحرك عينيك على سبيل المثال، تتفاوض مناطق الدماغ بعضها مع بعض بحيث تميل أنماط نشاطها المختلفة إلى التكامل. ولتبسيط أكثر: إذا كانت المنطقة أ تصوّت لتحريك العينين إلى الأيسر، وكانت المنطقة ب تصوّت للتحريك إلى الأسفل، فإن اتفاقهما سيؤدي على الأغلب للحركة على محور مائل باتجاه الأسفل والأيسر. تملك الشبكات المعرفية الأكثر قوة حق تصويت أقوى في هذه العملية من التعديل؛ فإذا كان النشاط في المنطقة ب أقوى من نشاط المنطقة أ فإن حركة العينين ستكون إلى الأسفل أكثر منها إلى الأيسر، وهكذا عندما تفرض مجموعة جديدة من المعتقدات (المرتبطة بطائفة دينية) على نموذج موجود مسبقاً (أحياناً مختلف جداً)، فإن نجاح غسيل الدماغ سوف يعتمد اعتماداً حيوياً على كم الشبكات المعرفية الجديدة الأكثر قوة من الشبكات المعرفية القديمة. يقلل العزل قوة تصويت الشبكات المعرفية القديمة، ويسمح للتلاعب العاطفي والنفسي القويين لبيئة الطائفة الدينية للعمل بأقصى تأثير.

العائق الثاني الذي يواجهه فتّيو التأثير هي أنهم ما داموا لا يعرفون المستهدف معرفة جيدة، فإنهم يعملون في العماء، فهدفهم هو أن يتقبل المستهدف معتقداتهم المفضلة، وهي مهمة أسهل بكثير إذا كانت المعتقدات لا تتناقض مع ما يؤمن به المستهدف أصلاً، فالشبكات المعرفية الأكثر ملاءمة أكثر قبولاً؛ لأنها تحرض تفكيراً أقل، ومن ثم تكون أقل استهلاكاً للجهد، فكلما كانت شبكتي معرفية أقرب إلى شبكتك، زاد ما نشترك فيه وزادت فرصة أن نتوافق، وكلما عرفتي أكثر، وتطابقت أفكارنا، يزيد التأثير الذي يمكنك أن تطبقه. هناك تعليق يتكرر كثيراً على لسان المعتنقين لديانة جديدة أو حركة سياسية جديدة؛ وهو أن ما يقوله القائد يتطابق تماماً مع ما يفكرون فيه، يمكن أن يكون مفهوم انسجام العقول هذا هو نفسه مصدراً قوياً للابتهاج المشترك، مضيفاً إلى اللاصق العاطفي الذي يربط الحركات بعضها ببعض ويجعلها كياناً متماسكاً مثل مجموعة، أو قبيلة، أو طائفة دينية وليس مجرد عدد من الأشخاص.

لكن فنيي التأثير لا يعرفون في كثير من الأحيان حالة الشبكة المعرفية للمستهدف مقدماً، ومن ثم يخمن بعضهم على أساس خلفيتهم المعرفية (المتصل الذي عرض عليّ سعراً مقطوعاً

لمطبخ جديد ليس محظوظًا: معظم جيراني يمتلكون بيوتهم ولا يريدون مطابخ جديدة)، ويحاول بعضهم الآخر سبر الهدف بأسئلة موجهة جيدًا، لكن ذلك يحمل خطر أن ينتبه المستهدف، وهو ما يثير ارتكاس المفاعلة، أو أن يمل، وهو ما يدفع لارتكاس الانسحاب.

في المواجهات الفردية بعددها الهائل التي تشكل بمجموعها سباق التسليح يحرز كل من الطرفين انتصاراتهم، ولكن في الحالات المتطرفة قد تطفئ القوى التي تستعمل غسيل الدماغ على المقاومة، وكذلك فإن التدريج الذي يميز غسيل الدماغ عن طريق التسلسل قد يتجاوز حتى أكثر حراس القشرة الأمام جبهية يقظة، وحتى مع ذلك، من الواضح أن بعض الناس أكثر يقظة أو أكثر مقاومة من غيرهم. ما الملامح التي تجعل بعض العقول أكثر عرضة للتأثير وآخرين قدرة على الدفاع عن أنفسهم ضده؟ يوحي ما عرضه في الجزء الثاني أن مقاومة الدماغ لتلقي معتقدات جديدة تأتي من ثلاثة مصادر متداخلة: عدد الشبكات المعرفية الموجودة سابقًا، وقوة هذه الشبكات المعرفية، والقدرة على التوقف والتفكير. دعونا ننظر في كل منها بدوره.

تغيير الشبكة المعرفية

عدد الشبكات المعرفية

يجعل المشهد المعرفي الفني، المليء بالمشاهد المعرفية والقادر على التعامل مع المثير بطرائق متنوعة ومرنة، من الصعب على غاسل الدماغ أن يفرض معتقداته الجديدة، ويمكن باستعمال مثال تدفق الماء من الفصل الثامن، أن نرى لماذا الأمر كذلك؛ فإذا كان للماء قنوات قليلة فقط يعبر فيها، فسيكون التدفق في كل قناة قويًا، وستكون آثار التآكل -الذي يزيد حجم القناة- كبيرة، وإذا توافرت قنوات أكثر، فسوف يصبح التدفق في كل قناة أقل، وسيزيد حجم القناة ببطء أكبر؛ فكذا في الشبكات المعرفية؛ كلما توفر عدد أكبر من القنوات البديلة لتدفق النشاط العصبي من الوارد إلى استجابة الصادر، كان كل تشابك عصبي فردي أضعف.

هذا هو السبب في أن العمر، والتعليم، والإبداع، وتجارب الحياة التي تُغني المشهد المعرفي، تميل إلى الحماية من تقنيات التأثير. عدد الاتصالات بين الخلايا العصبية في دماغ الإنسان ليس ثابتًا؛ ويمكن أن يشكّل استعمال الدماغ في التفكير تشابكات عصبية جديدة، وهذا هو السبب في أن مبدأ (استعمله أو افقده) ينطبق على الدماغ كما ينطبق على العضلات. في الأدمغة اليافعة،

الأقل تعلمًا، والأقل إبداعًا، أو الأقل خبرة، يعطي التوازن بين المعلومات القادمة والمعلومات المخزنة في الذاكرة - الواردات التاريخية الموصوفة في الفصل العاشر - أهمية أكبر للمعلومات القادمة، حيث يتوافر للشخص آنذاك تاريخ شخصي أقل، لذلك يكون أكثر قابلية لأن تقوده المثيرات، مرتكسًا للبيئة المباشرة عوضًا عن التوقف والتفكير بها. تملك الأدمغة الأكبر سنًا، المتعلمة أكثر، أو الأكثر خبرة، واردة تاريخية أكثر، تتنافس مع إبحار الأمور التي تجري في لحظة ما على القيام بفعل. يمكن أن تكون العواطف أيضًا أقل إيلامًا، والطلبات أقل إلحاحًا - فقط إذا كانت هذه العواطف قد قوبلت سابقًا - في دماغ الشخص الأكبر سنًا، وربما كان هذا هو السبب في أنه يعتقد بأن السفر يوسع مدارك العقل، ليس المهم هو عملية السفر نفسها، وإنما تنوع الخبرات الجديدة التي يكتسبها المرء في أثناء ترحاله. إن الدماغ الذي أغنته التجارب المتنوعة التي يكون فيها للواردات التاريخية دور بارز، أكثر حذاقة وتميزًا، وأصعب قابلية للضغط عليه من قبل المثير الوارد، ومن ثم أصعب قابلية لأن يسيطر عليه التلاعب بالعقول.

يمكن أن يساعد توافر شبكات معرفية أكبر الشخص المستهدف على مقاومة حتى أشد أنواع التلاعب بالعقل. كثيرًا ما يرتكس ضحايا التعذيب للإكراه المطبق عليهم بتفعيل شبكات معرفية غنية بالخاصة - معتقدات دينية، أو صورة حبيب - متمسكين بها للتشبث بحياة عزيزة، ومتخذين الدعم منها، وهذا هو السبب في أن أساليب الإكراه المعقدة تناوب بين العنف واللفظ. الحب هو أعظم مصل مضاد للتعذيب، كما هو مصل مضاد لأنواع عديدة من الأذى، ويمكن أن يكسر التظاهر بالشفقة مقاومة الضحية بكفاءة أكبر من كفاءة الألم، من ذلك أن أحد السجناء الأمريكيين في كوريا يصف كيف كان يؤخذ باستمرار إلى (باب الموت) قبل أن يعفى عنه، وعلى الرغم من حقيقة أن معتقليه كانوا على وشك أن يكونوا مسؤولين عن قتله، فإنه كان يقول بعد مدة إنك «تصبح شاكراً لهم لأنهم أنقذوا حياتك عندما كنت على وشك الموت.. كانوا يفعلون ذلك مرارًا وتكرارًا بما كان يكفي لأن تستحوذ على كامل عملية تفكيرك، إلى أن تصبح مدينًا بما يكفي للقيام بأي شيء يريدونه»⁵، ومع مرور الوقت، أصبح الإنقاذ من الموت أكثر كفاءة في التأثير من التهديد به.

قوة الشبكة المعرفية

من المتناقضات أن الدماغ الأقل امتلاكًا للشبكات المعرفية يمكن أن يكون أيضًا أصعب مطاوعة لغسيل الدماغ من الدماغ الواسطي؛ يحدث ذلك عندما تكون الشبكات المعرفية متمكنة جيدًا: توفر معتقدات الشخص الخاصة المتينة بعض الحماية على الأقل من تجار المعتقدات،

وهنا أيضًا يختلف الأفراد بعضهم عن بعض؛ فيكون لدى بعضهم معتقدات قوية، لكن مستوى ما يسميه علماء النفس (الحاجة إلى التحكم) يكون منخفضًا لديهم. يكونون واثقين بأنفسهم بما يكفي بحيث إنهم لا يشعرون بأن معتقداتهم الخاصة مهددة عندما يقابلون أشخاصًا لديهم وجهات نظر أخرى؛ سوف يستمعون بتسامح، لكنه من غير المحتمل أن يغيروا معتقداتهم الخاصة. يبدو بعض الأشخاص متشككين وغير مقتنعين حتى بالمعتقدات السائدة في مجتمعاتهم؛ ولا يلتزمون بقوة بأي مذهب فكري، وآخرون يجمعون بين ميلهم إلى الإيمان بمعتقدات متينة مع الحاجة إلى فرض أفكارهم على الآخرين. لدى مثل هؤلاء الأفراد احترام قوي للذات -يؤمنون بمعتقداتهم بقوة- لكن حاجتهم إلى التحكم قوية أيضًا. ووفق ما يحاجج روي بامستر Roy Baumeister (النظر الفصل الخامس) فإن ثقتهم العالية بالذات وسهولة المطاوعة للتأثير في الوقت نفسه، يمكن أن تجعل هؤلاء الأشخاص العقائديين أميل للارتكاس بعنف لأي تحد لوجهات نظرهم، ولكن أساليب التأثير القوية قوة كافية يمكنها أن تفرض عليهم اعتقادًا جديدًا، سيدافعون عن بعد ذلك بشراسة.

إساءة استخدام القشرة الأمام جبهية : تجاوز آلية (توقف وفكر)

«... لكنها مؤسفة حالة الارتباك

للوفيات المقلقة والمحزنة،

في أنها تمهد الطريق للولادة القبيحة

لآلامهم الخاصة، وتبقى مع ذلك تضي

فتنة على الحمافة».

صموئيل دانيال Samuel Daniel، رسائل خاصة، (للسيدة مارغريت، كونتيسة كامبرلاند)

Samuel Daniel, Certain Epistles, "To the Lady Margaret, Countess of Cumberland"

القدرة على التوقف والتفكير

تعتمد كفاءتنا في اكتشاف وتحدي محاولات التأثير، كما شرحنا سابقًا، على غنى مشهدهنا المعرفي، وتعتمد كذلك على مدى قوة تفعيل شبكاتنا المعرفية؛ فعندما تتدفق من خلال هذه الشبكات طاقة من منبهات شديدة وبسيطة، من عواطف جياشة، فإنها قد تحفز قبل أن نستطيع إيقاف أنفسنا. ووفق ما أظهر الجزء الثاني من الكتاب بوضوح، فأحد المبادئ التي تنطبق على

الأدمغة البشرية هو أنها ليست آلة حساب منطقية بصورة مثالية تدرك أفضل مصالحها وتختار وفقاً لذلك، حتى سكان كوكب فولكان في مسلسل الرحلة عبر النجوم، الذي يعدون النموذج المثالي للمنطق، يمرون بمراحل عاطفية، والبشر أقل مهارة بكثير من الفولكانيين في التحكم في مشاعرهم، وربما تعود حقيقة أن عجزهم هذا كثيراً ما يخدم مصالحهم إلى حقيقة أن كاتب مسلسل الرحلة عبر النجوم هو من سكان الأرض وليس فولكانياً، لكنها تعكس مع ذلك فهمنا المتزايد لكيف ولماذا تهمنا العواطف⁶. وحسبما يقترح الفصل التاسع، فإنها عنصر ضروري لنجاح الفعل البشري، فيمكن أن تسبب المشكلات إذا كانت مفرطة (وخير الأمور الوسط كما يقول المثل)، ولكن من دونها يمكن أن يتوقف اتخاذ القرارات نهائياً.

مع ذلك، فقد يضللنا الاعتماد على العواطف؛ فيمكن لعملها بوصفها طرفاً مختصرة لأداء الفعل أن يرجح القرارات بأفضلية للملذات بدلاً من فائدة أعظم لكنها تتحقق على المدى الأبعد. كذلك فإن العواطف لا تميز إلى حد ما بين الأشياء، وتتمثل قدرتها بغمر الدماغ، مسببة تغيرات في مناطق عديدة متداخلة بمقياسها الزمني البطيء نسبياً. والعواطف تتلأأ في حين أن الأفكار لا تتلأأ (ونحن نضرب مثلاً بعقل الجرادة، يقفز من فكرة لأخرى كالجرادة، ولكن ليس بقلبيها). ووفق ما بحثنا في الفصل التاسع، فإن عدم التوافق هذا بين زمن الشعور بالعاطفة ودقة وسرعة التفكير واللغة، كما يمثلها البطل (الفضي السريع) في قصص الأبطال المتحولين، يسمح للمشاعر التي تثيرها فكرة ما (كلمة، أو عبارة، أو صورة) أن تتوافق مع مفهوم آخر، ربما ليس له علاقة أبداً بالأول، وعدم التوافق هذا يُستغل كثيراً من قبل فنيي التأثير.

لذلك فإن للفوارق الشخصية أهمية في كيفية تعامل الأدمغة مع العواطف. يبدي الناس أنواعاً مختلفة من العواطف، ومن الخطوط العاطفية المبدئية؛ فبعض الأشخاص أكثر حساسية أو أقل، أكثر هدوءاً أو أكثر عرضة للغضب، أكثر استرخاءً أو أسهل استفزازاً، أشجع أو أكثر خوفاً من جيرانهم. وأحد تحديات إقامة علاقة جديدة هي معرفة نقاط ارتكاز شريكك. يعود بعض هذه الفروق إلى الاختلافات الوراثية، مثل مستويات النواقل العصبية مثل السيروتونين الذي يعتقد أنه يعدل المزاج، ولكن هناك أيضاً أدلة على أن التجربة الباكرة في العمر يمكن أن تؤثر في تحديد الخط المبدئي لكثير من العواطف⁷.

أحد الأمثلة المدروسة جيداً هو الحساسية للتوتر التي من المعروف -وفق ما ذكرنا سابقاً- أنها تختلف كثيراً من شخص إلى آخر، وكثيراً ما يستخدم فنيو التأثير التوتر؛ بإثارة نوع ما

من الشعور السلبي لدى المستهدف - الشعور بالذنب، أو الخوف، أو عدم الانسجام الفكري من نوع ما - يستطيعون عندها أن يقدموا السلوك الذي يريدون تحريضه على أنه الطريق للتخلص من كامل هذا الضغط العاطفي. إنهم يعلمون أن احتمال أن يتصرف الشخص المتوتر تصرفاً ارتكاسياً، مستعملاً التفكير النمطي، أكبر مما لو أعطي الوقت والسعة للتفكير في حالته.

يمكن أن نجد الفروق الشخصية أيضاً في شعورنا بالحرية، ونقيضها، المفاعلة، اللذين يعملان كما تعمل العواطف، وفق ما حاججت في الفصل الحادي. قد توضع الخطوط الأساسية عندما يكون الطفل في عمر سنتين تقريباً، وهو العمر الذي يكتشف فيه الإنسان الحيوان شعوره بالحرية، ويصبح عادة نمروداً، كما لاحظ شيالديني Cialdini: «يشهد كثير من الآباء على رؤية سلوك أكثر رفضاً من قبل أطفالهم في هذه المرحلة، ويبدو أطفال عمر السنتين سادة في فن مقاومة الضغط الخارجي، خاصة من قبل آبائهم؛ فقل لهم شيئاً وسيقومون بعكسه، أو أعطهم لعبة وسيطلبون أخرى»⁸. يؤذن عمر (الفطيعتين) ببداية الفردية والاستقلال الذاتي، مع بدء الطفل بفهم نفسه على أنه كيان مستقل عن العالم من حوله، ويتطور سيادة على جسمه الخاص، مع كل ما يتضمن ذلك من الشعور بالوكالة على النفس. يتطلب جزء من عملية تعريف الذات فهماً مفصلاً للبيئة الاجتماعية، ويكون الحصول على كثير من المعلومات الضرورية عن طريق التجربة والخطأ؛ اختبار حدود تسامح المقدمين للعناية لتعلم ما هو مقبول أو لا (هذا هو السبب في أنه كثيراً ما ينصح بالسلوك الثابت في دروس الأبوة والأمومة، إذ يتعلم الطفل الذي يحاول فهم القواعد الاجتماعية فهماً أسهل إذا كانت الأمثلة التي تقدمها تتبع نمطاً واضحاً)، ويشمل اختبار الحدود في كثير من الأحيان درجة مثيرة للغضب من المفاعلة، حين يحاول الطفل تعديل افتراضه المبدئي الإنكاري بأن كل شيء مسموح به إلى مطابقة أكثر واقعية مع الواقع الذي عليه العالم⁹.

يقبل بعض الأطفال، مثل بعض البالغين، القيود بخنوع، وبعضهم الآخر أبطاً في تخليه عن حلم التحكم، على الرغم من أن جميع الأطفال (الذين لا يمكن إدارتهم) يستقرون في النهاية، إذا أعطوا الفرصة، ولتصرف الأقران ومقدمي العناية أهمية كبيرة في تحديد كون الطفل سيتابع حلمه إلى أن يصبح بالغاً، وهو يعدُّ بقية العرق البشري جاهزين للاستغلال، أو إذا كانت الحريات الأخرى ستقوم بالمعاوضة.

يمكن أن يزيد التلاعب بشعورنا بالحرية من قابليتنا لتقنيات التأثير، وهذا هو السبب في أن المقاربات التي تؤكد الخيار الشخصي يمكن أن تجاوز ما هو في الأصل دفاعات متينة، ولا

يبدو أن الحصول على حرية جديدة يؤثر فينا كما يؤثر التهديد بفقدان حرياتنا الحالية؛ فنحن نفضل عادة أن نُتملّق، وأن يداهن شعورنا بالسيطرة بخفاء، على أن يُتمرّر علينا لتغيير سلوكنا، وليس هذا التفضيل نزعة من النوع الخفيف، مثل أي عاطفة، لا يوجد ثنائي الحرية/ المفاعلة في عزلة إما عن الدماغ أو الجسد. الشعور بالسيطرة الذي يميّز الحرية والذي يحرض فقدانه على حصول المفاعلة يترافق، مثل العواطف الإيجابية، مع صحة جسدية وعقلية أفضل.

يمكن أن تؤدي المفاعلة التي يحرضها فقدان السيطرة، مثل العواطف السلبية الأخرى، إلى حصول الأمراض وحتى الموت المفاجئ لدى البشر والحيوانات¹⁰.

يستطيع فني التأثير الماهر أن يعرف مباشرة أن المفاعلة قد حُرّضت، وأن المستهدف جاهز للمعارضة، وأن السيطرة عليه أصعب بكثير، لذلك فقد يحاول أن يجعل الضحية تشعر بأنها مسيطرة، مثلاً بطلب الموافقة: «هل أستطيع أن آخذ لحظة من وقتك؟»، أو إضافة عبارات مثل (قرارك)، (اختر أنت)، و(حسبما تريد) لإعلان البيع. وكثيراً ما تعكس درجة إعلاء شأن الحرية مدى تقيدها في الواقع. يسهل العثور على الحديث على الحرية في خطابات الحكام الشموليين¹¹، والمثال الأقل تطرفاً هو حرية الاختيار المتبجح بها كثيراً في وسائل الإعلام في بريطانيا وأمريكا، فمن ناحية المبدأ، يستطيع من يريد أن يعرف آخر الأخبار أن يختار من مجموعة مثيرة من الجرائد، أو محطات التلفزة، أو المذياع، أو مواقع الشبكة، وهكذا، عملياً، يُظهر أي حدث خبري كبير التشابه الأساسي لهذه المصادر التي هي في الظاهر مختلفة. يمكننا بالتأكيد أن نختار كيفية تلون معلوماتنا-تحريرية أم محافظة، قطرية أم عالمية، رفيع الثقافة أم سطحي، ولكن الذي لا نستطيع عادة أن نفعله هو وضع البرنامج الذي يحدد ما الذي سيداع خبراً، ومن ثم توفر خيارات ننتقي منها اختيارنا.

تتعلق قابليتك للتعرض لغسيل الدماغ (والأشكال الأخرى من التأثير) بحالة دماغك، تعتمد الحالة جزئياً على مورثاتك، إذ تدل البحوث على أن وظيفة القشرة الأمام جبهية تتأثر كثيراً بالبنية الوراثية¹²، ويشجع المستوى التعليمي المتدني، والتصلب العقائدي، والعوامل الأخرى التي تؤثر في وظيفة القشرة الأمام جبهية، التفكير البسيط، على نمط أسود-أبيض؛ فإذا كنت قد أهملت خلاياك العصبية، أو أخفقت في تنبيه تشابكاتك العصبية، أو رفضت بعناد خوض تجارب جديدة، أو سببت الأذى لقشرك أمام الجبهي بالأدوية (ومن ضمن ذلك الكحول)، أو قلة النوم، أو العواطف المتأرجحة، أو التوتر المزمن، فقد تكون فعلاً عرضة للمفانن الشمولية للشخص

نافذ الشخصية الذي ستقابله لاحقاً، وهذا هو السبب في أن الأشخاص اليافيين يحبرون الكهول الأكثر بروداً بانضمامهم للطوائف الدينية، وإظهار الهوس بالألبسة الراجئة والمشهورين، وتشكيل روابط شديدة مع قدوة كثيراً ما تكون غير ملائمة.

لكن الإساءة للقشر أمام الجبهي لا تنحصر باليافيين، فالنضج، والمناعة التي يمكن أن يمنحها ضد أسلحة التأثير، هي في متناول يد معظمنا، لكن يجب علينا أن نختار بذل الجهد لتحقيقها، وبتوسيع مفهوم المشهد المعرفي نستطيع القول إن الدماغ يشبه كثيراً زرع حديقة؛ فالهدف -ابتداء- من منطقة برية هو تكوين نموذج يسرنا، ممتع لنا وللآخرين، وفي السنوات الأولى يمثل المزارعون الأشخاص المحيطين بنا، والمقدمين للعناية، والإخوة، والأصدقاء الذين نأخذ منهم أبكر سماتنا، ومع مرور الوقت نستطيع بصورة متزايدة تسلم الزمام، لنتخيل بأننا -منفردين ضمن الأنواع الحية على كوكب الأرض حسب علمنا- مزارعو ذواتنا. نبحث عن الأشخاص والتجارب التي ستساعدنا على أن نصبح ما نحن عليه؛ نتجنب الإغراءات، الإلهاءات، والانحرافات بتعلم الأسباب التي جعلنا نرى أنها ليست حقاً مثيرة للاهتمام بذلك القدر، والتقدم في العمر عامل مساعد؛ إذ يغلب أن تحظى الأشياء باهتمام أقل.

بالطبع، فإن الاستيقاظ الذي يعيد رسم مفاهيمنا على أننا كائنات متغيرة ذاتياً لا يحدث في جميع الحالات، فبعض المزارعين نيام طيلة حياتهم، ويمكن أن يشكلوا عبئاً ضخماً على من حولهم، لكن ليس الجميع، ومن الأسهل لمزارع آخر إذا حاول الاستيلاء على فنائك الربح، أن يفرض نموذج المفضل على الأرض المليئة بالأعشاب البرية من أن يفرضه على حديقة معتنى بها جيداً سابقاً، وكما هي الحال في الحدائق والمزارعين، فكذلك الأمر في الأدمغة وغاسلي الدماغ، مع أنه تجدر إضافة أن الأدمغة أعقد بصورة لا يمكن تخيلها في أي حديقة، حتى إن الدماغ الأكثر انتظاماً لن يرضى بالمقارنة أبداً بالترتيب المزدهم ولو لأكثر مساعينا الزراعية إتقاناً/ تنظيمًا.

لقد بحثنا في أهمية العواطف في محاولات التأثير، ورأينا كيف أن العالم الأغنى عقلياً يمكن عادة أن يكون حامياً لنا، لكن هناك عامل ثالث أيضاً هو: معرفة الذات، وإدراك أننا من طين وليس من الماس، فإذا كنا نعرف أننا نستطيع تغيير أنفسنا، فغدها نعرف أننا نستطيع أن نزرع شبكاتنا المعرفية، ونشذبها مثلما نشذب حديقتنا. إن فهم أن الأدمغة يمكن أن تتغير هو

الخطوة الأولى في مقاومة التغيير المفروض على الآخرين، وهذا بالمناسبة هو السبب في أنه يمكن تنويم الدجاج مغناطيسياً بخط مرسوم على الأرض أمامها أو بتلويح الإصبع إلى الأمام والخلف أمام وجوها، في حين لا يمكن عادة تنويم البشر بهذه الطريقة¹³. وعلى الرغم من أن أي شخص يرى أشخاصاً مسحورين بمنظر جميل قد يشكك في مصداقية هذه الفجوة التطورية، فإن معظم البشر أصعب تنويماً من الطيور، فنحن نعملاً مسبقاً أننا يمكن أن نغير، في حين لا يعلم الدجاج ذلك.

صيادو القوة

بعد أن نظرنا في العوامل التي تجعلنا عرضة لغسيل الدماغ، نستطيع أن نسأل السؤال التكميلي: ما عوامل صنع فنيّ تأثير جيد؟ الأول، أكثر الأجوبة وضوحاً هو الدافع؛ أي أن يريد فنيو التأثير تغيير عقول الآخرين، وهنا تكون الحاجة إلى التحكم -موضع الخط الأساسي لإحساس الشخص بالحرية- ذات أهمية، فكلما كان موضع الخط أعلى، كان الشعور بالمفاعلة أكبر عند التعدي على الحرية، ومن ثم كانت الحاجة أكبر إلى السيطرة على المحيط، وخاصة المحيط البشري، ولربما يقطع هذا شوطاً في تفسير سبب تحول الأشخاص الذين يحاربون بضراوة من أجل الحرية، بسهولة جداً، حالما تتجح ثورتهم، إلى حكام شموليين قُساء.

ولأنه من الأسهل الشعور بالسيطرة على الأشياء البسيطة (فان قيادة طفل بقيادة حكومة)، فإن المستويات العالية للحاجة إلى التحكم تميل إلى أن تتماشى مع التبسيط الفكري؛ وهو ما يشير إليه روبرت ليفتون Robert Lifton (بالتفكير الشمولي). البساطة جذابة جداً لأولئك الذين هم أنفسهم مضطربون، وهناك كثير منهم، حيث إن إطلاق رسالة بسيطة أسهل عادة بكثير من الخوض في جدالات معقدة، بالنسبة إلى الأفراد، كما هو بالنسبة إلى المجتمعات، يكون تأثيرهم الكلي في الآخرين أكبر بكثير إذا كان بالإمكان صف جميع مصالحتهم المتنافسة خلف رسالة واضحة يمكن تحديدها. عملياً، معظم الأفراد، مثل معظم المجتمعات، مهَيَّؤون إلى حد كبير لفرض رسالة واحدة بسيطة عليهم، ومن ثم يستعمل أولئك الذين يحكموننا إستراتيجيات أخرى: تصريحات بالمهام، ولوائح، وبالطبع اللجوء إلى الأفكار الأثيرية التي تُحسب درجة إبهامها لزيادة قبولها العام، لكن في الحالات التي تكون فيها الفوضى -الشخصية أو السياسية- هي المبدأ الحاكم، فإن وضوح الرؤية الذي يتماشى مع التفكير الشمولي يمكن أن يبدو وكأنه حبل النجاة من الهاوية.

قوة الشخصية

كما رأينا في الفصول السابقة؛ يدين القادة في تأثيرهم في كثير من الأحيان للرؤى الواضحة البسيطة، ويمكن زيادة نفوذ الشخصية – (موهبة أو قوة في القيادة أو السلطة؛ أيّ هالة، ومن ثم القدرة على إلهام الإخلاص أو الحماس) – بالقوة الواعية، وكان ذلك أقصى مثير لوزير الخارجية الأسبق هنري كسنجر Henry Kissinger¹⁴، ويتعزز نفوذ الشخصية أيضاً بالشعور القوي بالذات، والانطباع بوحدة الأفق والهدف، وإذا تذكرنا وصف جورج أينسلي George Ainslie لكل دماغ بشري بأنه مسرح لمصالح متنافسة، الذي بحثناه في الفصل الحادي عشر، نستطيع أن نرى ملاءمة مصطلح (وحدة الأفق). مع أن المصالح تتنافس – (خذ قطعة الشوكولا) ضد (التزم بالحمية) – فإنها تجبر في بعض الأحيان على العمل المشترك بسبب تحدد الموارد؛ إذ لدينا نحن البشر مجموعة واحدة فقط من الأطراف (هل دماغ الأخطبوط الذي لديه أطراف أكثر يلعب بها أقل تشاركاً من أدمغتنا؟). كلما زادت درجة العمل المشترك – كلما زاد عدد المصالح التي تستهدف الهدف ذاته – زادت وحدة الأفق عند الشخص، وزادت درجة رؤية الناس الآخرين لهم بأنهم مفروضون عليهم. قد يحسد الأشخاص ذوو العقول الأكثر تجزؤاً في الشعور بوجود هدف، والغياب الظاهري للتشاحن الداخلي المضني، البادي لدى الأشخاص الذين لديهم إحساس قوي بالذات.

ولكن وضوح الرؤية ليس كافيًا لتكوين نفوذ الشخصية؛ إذ يحتاج المرء أيضاً إلى مهارات اجتماعية كافية، وإيمان بالذات، لإلهام التابعين بالإخلاص والحماس، وستكون النتيجة من غير هذه الطلاقة بين الأشخاص هاجساً بالوحدة، كما يمكن أن تشهد أي كلية في جامعة أكسفورد، وحتى هذا قد لا يكون كافياً؛ ذلك أن قيادة ذوي الشخصية الكارزمية – وفق ما لاحظنا سابقاً – لا تعتمد فقط على الشخصية وإنما أيضاً على الأوضاع؛ فيجب على القائد أن يركب موجة العصر، وللحظ والتوقيت دور كبير في تحديد أن المطاف سينتهي بأن يكون – على سبيل المثال – مانسون Manson (في الطائفة الدينية عائلة مانسون Manson) أو موسى قائداً لطائفة دينية. وحسبما يجادل أنتوني ستيفنز Anthony Stevens وجون برايس John Price في كتابهما الأنبياء، الطوائف الدينية والجنون Prophets, Cults and Madness، فإن ما تتطلبه الأحوال أحياناً هو منظور محدث؛ أي طريقة جديدة في النظر في حالة أو مشكلة منهكة، وهذه القدرة على أخذ معلومات جديدة وإدراكها بطريقة جديدة جزء مما يجعلنا بشراً، لكن بعض الأفراد المبدعين جيدون خاصة فيما يسميه أنتوني ف. سي. والاس Anthony F.C. Wallace: «إعادة تركيب طريق

المتاهة»، حيث يعيدون تركيب عناصر أفكارهم الحالية عن ثقافتهم (طريق المتاهة) بشكل جديد وباهر يبدو أنه يعد بحلول لمشكلات كانت سابقاً غير قابلة للحل¹⁵؛ قد يكون هؤلاء الأشخاص معرضين أيضاً للإحساس بوسواس الاضطهاد، أو لحالات روحانية قوية، أو الاعتقاد بالخارج عن الطبيعي، وتجارب بصرية وسمعية غير عادية (مثل سماع الأصوات مع عدم وجود أي شخص حولهم في الواقع)، هذه صور خفيفة من الأعراض المشاهدة في الفصام، وفي الحقيقة فإن ثمة ربطاً بين الإبداع العالي وزيادة خطر النفاس (مثل الفصام) وربما الاضطراب ثنائي القطب (كآبة-هوس)¹⁶.

يبدو الأشخاص المبدعون جداً وكأنهم يفكرون بصورة مختلفة، معتمدين اعتماداً أقل على المنطق التقليدي وأكثر على الحدس، ويرون روابط لا يراها الآخرون، وتضعهم هذه المرونة في موضع أفضل للقيام بعملية نفص داخلي هي إعادة تركيب طريق المتاهة المذكورة أعلاه. من الناحية العلمية العصبية، رُبط الإبداع العالي بتقلل عالٍ في الفص الصدغي (خلايا عصبية ناشطة بصورة غير طبيعية في تلك المنطقة من الدماغ، انظر الفصل السابع)، وقد يكون أيضاً لدى الأشخاص ذوي الإبداع العالي أدمغة ذات روابط أكثر، وإن لم تكن بالضرورة أكبر حجماً؛ أي تحتوي على تشابكات عصبية أكثر تربط الخلايا العصبية بعضها ببعض، وهو ما يسهل قدرتها على ربط الأفكار بطرائق أصيلة غير معتادة، لكن الإبداع غير كافٍ لنفوذ الشخصية؛ فكثير من الأشخاص المبدعين جداً لا يتمتعون بشخصية نافذة. حالما يتشكل طريق المتاهة الجديد، يجب أن يكون لدى صانعيها الشغف لتبني أفكاره الجديدة ومتابعتها بقوة - بأفق واحد - والقدرة على فهم حاجات الآخرين وتلبيتها (ومن ثم استجذاب التابعين).

مع أنه يبدو أن الواقع سيفرض على المفكرين الشموليين - على المدى البعيد - وجوده غير المرغوب فيه عدا أشدهم عناداً؛ فعلى المدى القصير يمكن أن يكون هؤلاء المفكرون مقنعين بطريقة مدمرة. يحرص أفضل مثيري الشغف على البقاء مسيطراً من دون أن ينسى الأهداف النهائية التي يهدف إليها، مخوّفاً أو ملهماً بالمظهر الواثق للهدف، بهالة القوة. إذا كان لدى مثل هؤلاء الأشخاص وازع أقل مما لدينا، وكانوا ينظرون إلينا فقط على أننا وسيلة لغاياتهم، فإنهم ربما كانوا شديدي الخطورة؛ يعلم غاسل الدماغ الكفّي كيف يطبق الضغط للتخلص من التوتر والتعب، أو الألم أو الوحدة، ويطبق قوة المجموعة والضغط للإذعان، للتغلب على مواردنا في الوقوف والتفكير وإرسالنا راجعين إلى أسسنا الغرائزية.

الخلاصة والاستنتاجات

كيف تتطور أدمغتنا؟ ما الأفكار التي تستوعبها؟ ما البدع التي تتبعها؟ وما الأحلام التي تزديها؟ كل هذا شخصي بعمق لك ولك وحدك، ويمكن أن تتفخ الاختلافات البسيطة في قابليتنا للتوتر، أو المفاهيم التي تواجهها، أو الطريقة التي عوملنا بها على يد الآخرين في وقت باكر في الحياة - مع مرور الوقت - إلى فوارق عميقة في الشخصية لدى البالغ، وتتكون الفروق بين البالغين من تراثنا الوراثي، ومن تجاربنا السابقة، ومن الشبكات المعرفية التي تسكن أدمغتنا.

لكن كثيراً من الأفكار التي تؤثر فينا ليست شخصية فقط، بل إننا نميل إلى حد بعيد إلى إدراك أنها - وأننا - تأخذ شكلها بالأفعال الاجتماعية المتبادلة بيننا، وبالسياق الثقافي، والمجموعات والاجتماعات التي نمضي فيها عمرنا، وبحر الأفكار الذي نسيح فيه منذ الولادة¹⁷. سوف أنظر في الفصل القادم إلى هذه التأثيرات المجتمعية الأوسع، متسائلاً كيف تشجع، أو لا تشجع، محاولات السيطرة العامة على العقول؟